مدخل: إستريوغرافية المغرب الحديث.

الإستريوغرافية فن من فنون علم التاريخ، يهتم بدراسة طرق كتابة المؤرخين له، من حيث أساليبهم واهتماماتهم ومناهجهم وفلسفتهم فيه. وقد تطورت الإستريوغرافية عبر التاريخ، وأخذت معالم عدة، ويمكن إجمال مراحلها في مجموعة من الفترات، هي:

أ- العصور القديمة؛ وهو عصر نشوء التاريخ النقدي، وكان أوائل التاريخيين من الإغريق قد اهتموا بالأساطير التاسيسية لحضارتهم، واستعملوا أسلوب الرواية للحوادث. كان منهم "هيكاتي" (ق6 ق.م)، ثم ظهر هيرودوت (ق5 ق.م) الذي حاول أن يميز ما بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي فيما قصه. وكانت كلمة التاريخ في هذه المرحلة البدئية غير ما هي عليه اليوم من معنى، إذ كان معناها في الإغريقية "البحث". ومع ظهور "تيوسيديد" ظهرت الروح النقدية، القائمة على مقابلة المصادر المروية والمكتوبة؛ فكان كتابة تاريخ حرب البينوبونيز أول عمل تاريخي حقيقي. وخلفه "بوليبيوس" الدارس لقضية تعاقب النظم السياسية، ليفسر سبب دخول عصره في الظل الروماني؛ فكان أول من بحث عن الأسباب المحركة للتاريخ. ثم جاء تيتوس ليفيوس وسالستيوس وقيصر وتاستيوس الذين منحوا أعمالهم التاريخية قيمة أدبية، وتميزوا بالروح الوطنية أو الحزبية.

ب- العصور الوسيطة؛ وكان غالبية تاريخييها من الطبقة الدينية أو القريبة منها، المتداخلة مع السلطة الحاكمة، وقد ألفت في العادة في النسبيات والحوليات والسير والتواريخ حيث حكت كيفية نشوء أمة دينية مسيحية أو إسلامية؛ فطابعها أساسا ديني أخلاقي، لم تخرج عنه إلا في النادر.

ج- عصر الإحياء (Renaissance)؛ في القرن الثامن عشر، مع ظهور الحركة الإنسانية المتجهة إلى الموروث الحضاري البشري، والمبقية للتاريخ في خدمة السلطة الحاكمة.

د- في القرن 19م؛ ظهرت مدرسة النادية التاريخية، المعطية للتاريخ صفة العلمية والاستقلالية، مع مسحة اقتصادية غالبة.

ه- في القرن 20م؛ تشعب علم التاريخ إلى مدارسة متعددة منها: مدرسة الحدثية أو الإيجابية، ومدرسة الحوليات، ومدرسة التاريخ الجديد (1973م)، وغيرها، بسبب تعدد الأفكار وتكاثر الإديولوجيات وتوسع الحضارة. وفي وسط هذه المدارس ظهرت اتجاهات ونظرات جديدة في قراءة التاريخ، كاتجاه التجديد التاريخي الوسطوي، الذي اتجه للنظر في التاريخ الوسيط كعصر به مراحل من

الإحياء الحضاري عرف بالإحياء الوسطوي، يمثله الأمريكي "شارل هاسكنس" (1927م)، الذي يؤكد على إحياء حضاري أوربي في القرن الثاني عشر الميلادي.

- **إشكالية نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث**:

كان المؤرخون الوسطويون يقسمون مراحل التاريخ على التقسيم الإنجيلي" أو العصور العالم الستة"، وكانوا يصفون عصرهم بالعصر الحديث. وفي سنة 1330م وصف الشاعر الإنساني "بيترارك" (Petrarque) العصور ما قبل المسيحية بالقديمة (Antiqua) والعصور المسيحية بالجديدة (Nova). ثم قسم المؤرخ الفلورنسي "ليوناردو بروني" (Leonardo bruni) لأول مرة التاريخ قسمة ثلاثية، حيث اعتبر أن تطور إيطاليا في عصره قد أخرجها عن قسمة عصور بيترارك. ثم ظهر لفظ "العصور الوسطى" لأول مرة باللاتينية سنة 1469م بلفظ "Media tempestas" أي الفصل المتوسط، ثم بلفظ "Medium aevum" أي العصر الوسيط سنة 1604م. وتبدأ القسمة الثلاثية المشتهرة في القرن السابع عشر (17ق)، عن طريق "كريستوف سلاريوس" (C. Cellarius)؛ لتصبح قاعدة بعدها.

ويختلف المؤرخون في تحديد بداية للتاريخ الحديث، كما اختلفوا في تحديد بداية التاريخ الوسيط؛ على أنهم اتفقوا تقريبا على إيقاعها في نهاية القرن 15م، ولهم فيها أقوال عدة على حسب مدارسهم، منها:

أ- سقوط القسطنطينية 1453م.

ب- نهاية حرب المائة عام 1453م، بالنسبة للمؤرخين الفرنسيين.

ج- معركة "بوسوورث" (boswrth) سنة 1485، بالنسبة للمؤرخين الإنجليز.

د- أول رحلة لكريستوف كلومبس 1492م.

ه- سقوط غرناطة سنة 1492م، بالنسبة للمؤرخين الأسبان.

و-بداية الإصلاح البروتستنتي سنة 1517م.

لكن هذه التواريخ في الحقيقة لا تمثل لوحدها مرحلة تغير عصور؛ فالإستريوغرافية المعاصرة تعتبر فترة "الإحياء" (Renaissance) (1420م-1630م)، الوجه الحقيقي للانتقال من العصور الوسيطة إلى العصور الحديثة. لكنه يستشكل هنا أن هذا التوصيف لا ينطبق إلا على التاريخ الأوربي؛ لهذا كان تحديده بالنسبة لبلاد المعمور الأخرى راجع إلى خصوصياتها التاريخية، فلكل ناحية ظاهرة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية عملت على إخراجها من العصر الوسيط وإدخالها في العصر الحديث. بل إن بعض المؤرخين الأوربيين منهم "جاك لوڤوف"[1] (J. Le Goff) أعطى توصيفا أكثر توسعا لفترة التاريخ الوسيط، مدافعا عن العصور الوسطوية الغربية الممتدة، من القرن 4م إلى القرن 18م (الثورة الصناعية

[1]- جاك لوڤوف (1924-2014م) مؤرخ وسطوي فرنسي.

في أنجلترا والثورة الفرنسية)، رافضا أن تكون حركة الإحياء مُنهية للثقافة الوسطوية بل هي في رأيه امتداد لها.

فما هي العوامل الكبرى المتحكمة في التاريخ المغربي، والتي يمكن اعتمادها في تحديد بداية عصره الحديث؟

- **نظرية ابن خلدون في عوامل التاريخ المغربي**:

كان ابن خلدون مؤرخا، وأكثر من ذلك مفلسف تاريخ؛ وقد قامت فلسفته في البحث عن الإجابة عن السؤال التالي: لماذا انهارت الحضارة العربية الإسلامية بعد أن بلغت مداها من العظمة والمجد؟ فانصبت تأملاته على هذه المسالة الفكرية، التي ضمنها مقدمته؛ فخرج منها نظرية متكاملة في تفسير التاريخ الإسلامي، مبرزة العوامل الفاعلة في الحضارة الإسلامية، وهي في رأيه ثلاثة عوامل أساسية مجتمعة متفاعلة، ذات أثر حاسم في التجربة الحضارية الإسلامية:

أ- **العامل الفكري (الدين-الإديولوجية):** ونقصد به الديني بمعناه الواسع، ويهمنا منه مدى تأثيره في سير الأحداث التاريخية. فهو يرى أن الدولة باعتبارها رادعا يدفع بغي الناس بعضهم على بعض من ضروريات الحياة الاجتماعية، وهي لا تتأتى إلا بشروط معينة في مقدمتها الاستقرار في الأرض؛ ولما كانت البداوة لا تخضع للحكم ولا تميل إلى الاستقرار (التحضر)، احتاج البدو لتقوم لهم دولة لعامل يقلب طباعهم هنا، فكان ذلك هو الدين أو "الدعوة الدينية"، على أنه اشترط لها لتمامها أن تقوم على عاتق جماعة قوية ملتحمة بعصبيتها، يقول: "إن الدعوى الدينية من غير عصبية لا تتم"؛ فعصبية قريش أولا وعصبية العرب جميعا كانت شرطا ضروريا لنجاح الدعوة الإسلامية في مجتمعها وبيئتها المتميزة بالقبلية. إذا فالعصبية شرط للدعوة الدينية كما أن الدعوة الدينية شرط في دولة العصبية.

ب- **العامل الاجتماعي (العصبية):** فالعصبية عامل أساس في نظريته؛ فهي أساس الملك والشرط الضروري وأحيانا الكافي لقيام الدول؛ ودورها في التاريخ الإسلامي ركيز. فعصبية العرب ومن في معناهم قد طبعت **بطابعها** دولهم وممالكهم بمختلف مظاهرها. ففي الجانب السياسي كان لعصبية البدو و**خلق بداوتها** دورا أساسا في عدم استقرار الحكم وعدم طول أمد الدولة. وقد لعبت العصبيات الكبرى في التاريخ الإسلامي دورين متناقضين: دور الرابطة الجامعة في مواجهة الغير، ودور العصبية المفرقة بالنسبة للداخل. كما أن الصراعات السياسية للدولة الإسلامية حين نشأتها ما هي إلا استمرار لصراعات عصبيات الجاهلية، وحتى نتائجها لم تختلف عنها في الجاهلية، فكانت الغلبة دوما للعصبية الاقوى والأكثر فاعلية في الجاهلية (بنو امية- صنهاجة). إذن فالعصبية هي التي لعبت الدور الحاسم في التاريخ العربي والمغربي؛ فالتاريخ صراع بين العصبيات، وكما يكون حاسما في نشوء دولها يكون حاسما في

زوالها، مع تلبسه في أكثر أحواله بغطاء ديني. وكما أن العامل الديني مشروط بالعصبية، فإن العصبية نفسها تحددها الشروط المادية لحياة البدو.

ج- **العامل الاقتصادي (شؤون المعاشية):** إن ضرورة الاجتماع راجعة إلى حاجة "تحصيل الغداء"، واختلاف أقاليم المعمور من حيث كثرة العمران وقلته راجعة إلى حال"الخصب والجدب"، بل إن اختلاف أهل الوبر وأهل المدر راجع إلى اختلاف "نحلتهم من المعاش". ثم إن الملك وهو غاية للعصبية إنما يطلب من أجل ثمراته من "نوافل ورقة وزينة" العيش؛ فشؤون المعاش عنصر أساسي في حركية وتاريخ العمران البشري باختلاف أنواعه، والنحلة المعاشية خليط من تأثيرات اقتصادية وطبيعية جغرافية.

خلاصة القول أن حركية التاريخ الإسلامي (مشرقي ومغربي) ماثلة في الظاهرة الإجتماعية، من عصبية وبداوة، اللذين هما – في نظرنا – أساسان محركان لحركية المجتمعات الإسلامية الوسطوية، مع تبعات مأثرة لهتين الظاهرتين والمتمثلة في الدين وشؤون المعاش، غير أن الأخيرين شرطي كمال لنظريته ليسا شرطي صحة، وكل هذا أنظومة واحدة متداخلة متشابكة عرفها ابن خلدون بـ: "طبائع العمران".

- نظرية إيف لاكوست في عوامل التاريخ المغربي:

هي نظرية فرع عن الفكر التاريخي لمدرسة المادية التاريخية، واستعانت بفلسفة ابن خلدون في بعض جزئياتها. فيرى صاحبها أن المغرب الوسيط احتل مكانا أساسا في العلاقات التجارية لحوض المتوسط والمشرق الإسلامي؛ فقد تحكم مدة ستة قرون في **طريق ذهب السودان**، والذي كان المصدر الرئيس لهذه المادة الثمينة خاصة لتجار المشرق؛ وان طريق تجارته كانت منذ القرن السابع (1هـ) إلى منتصف التاسع (3هـ) آخذة طريق الصحراء الشرقية لإفريقيا، إلى أن استغني عنها، وفرضت طريق الصحراء الغربية الأقل صعوبة والأكثر أمنا. لقد كان تحويل هذه الطريق أحد أهم العوامل المؤثرة في التطور التاريخي لبلاد المغرب، فابتداء من القرن التاسع بدأ ظهور الممالك المغربية القوية، أو **حضارات تجارة الذهب**.

ويرى إيف لاكوست أن هذه التجارة كانت بيد الخواص، لم تتحكم فيها الدولة إلا بقدر تأمينها والسعي على بقائها و**استثمار ضرائبها**، فكانت عاملا أساسا في قوة الدولة المغربية؛ ولهذا ولعدة قرون تنازعت ممالكها السيطرة على طرقها، وخاصة على **"مراسي الصحراء"** الممثلة في المدن الرئيسة المتحكمة فيها.

كانت طريقها الرئيسة تمر عن طريق الأطلسي نحو الشمال الشرقي مرورا **بسجلماسة** قاعدة وصول قوافل الذهب، ومنها تنقسم الطريق نحو الشمال والأندلس، ونحو الشرق إلى المشرق، والتي نجد بها **"مدن المراحل"** التي ستصبح في الغالب عواصم الممالك المغربية القوية كفاس وتلمسان وتاهرت والقلعة وقسنطينة والقيروان...

كما يرى أن صراعات القبائل وممالكها لم تكن على أساس توسعي (عصبية) بقدر ما كان لأجل السيطرة على **طريق الذهب** هذه؛ ويدلل على ذلك بأن أكبر ثلاثة ممالك ظهرت في الناحية من خلال ثلاثة مجموعات قبلية قوية، بإنشائها ممالكها مباشرة تقريبا بعد السيطرة على سجلماسة: مملكة العبيدية ق10م (4هـ)، المرابطون ق11م (5 و6هـ)، الموحدون ق12م (6هـ).

كما أن الدولة المغربية الوسطوية غير موصوفة بحدودها؛ إنما هي أساسا **مركز محوري سياسي تجاري**، باسط سلطته على ما حواليه من القبائل، وقلبها مدينة تجارية كبرى، هي نقطة وصول القوافل التجارية الصحراوية. كما أن **أصل الفائدة** (فائض الإنتاج) المتركزة بيد الأرستقراطية الحاكمة ومن يدور في فلكها وبيد التجار، لم يتأتى عن طريق هيمنة هذه الفئات على وسائل الإنتاج، بقدر ما هي ناجمة عن موقع هذه الفئات **كوسيط تجاري** متوسطي؛ فكانت **أهمية الفائدة** التجارية مفسرة لضعف اتجاهها نحو الهيمنة على وسائل الإنتاج. وقد ساهم في جمع إيرادات التجارة وغيرها **نظام الاقطاع**، الذي يخالف الإقطاع الأوربي في كونه جبائيا محضا، لا تمليكيا ولا أخلاقيا ولا سياسيا؛ وسبب عدم تحوله إلى الإقطاع الأوربي قوة الروابط القبلية وعصبيتها، وأهمية الاقتصاد الرعوي.

كما أن فئة التجار لم تبحث على أن تصبح **برجوازية**، ولم تسع للهيمنة على وسائل الإنتاج؛ إذ كان التجار في بلاد الإسلام من التابعين للسلطة الحاكمة، كانوا في الحقيقة جزء من الأرستقراطية، كونوا **ارستقراطية تجارية** ذات روابط قوية مع الأرستقراطية القبلية (المخزن).وبالجملة لم تكن الأرستقراطية على تنوعها **"فئة مغلقة"** بل فئة مفتوحة لأصحاب المال أيا كانوا؛ لهذا كانت متبدلة ولم تبن **نظاما وراثيا** (النبالة) كما في أوربا.

اهـ